مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN: 1071-2335/ E-ISSN: 2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 11، عدد رقم: 01، مارس 2022، صص: 157-170

تاريخ الاستلام(2021/08/23)تاريخ القبول (2022/02/07)تاريخ النشر (2022/03/30)

السرد العربي الحديث بين شعرية الكتابة وسرد القص

Modern Arabic narration between poetic writing and storytelling

عطى الله الناصر
جامعة ابن خلدون - تيارت (الجزائر)، ensbnaceur@gmail.com

ملخص:

كلنا نعرف بأن العرب في البدايات الأولى قد اشتغلوا بتدوين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والسيرة العطرة رغم جهلهم وقدم عصرهم، فهم عرفوا فن التعبير والكتابة فراحوا يطبقون ذلك على مجالس السمر والحكايات والقصص والنوادر...إلخ، وذلك بعد أن ارتبطت أساليبهم وطرق تدوينهم بالتاريخ هنا يمكن القول بأن العرب قد عرفوا عملية تكوين ما يسمى بالسرد أو السرديات منذ القديم ثم جعل هذا الأخير يتسع ويشكل لنفسه دائرة لافتة تقترب بجملة من المناهج المختلفة، حتى استطاع أن يتأسس ويرنوا إلى ما يسمى بالنصوص السردية، في تجلياتها المتعددة سواء كانت هاته الأخيرة عبارة عن رواية أحداث وقعت أو محاولة التعبير عن ظرف معين .

كلمات مفتاحية: الكتابة السردية، آليات القص، النص السردي، السرد العربي، شعرية الكتابة .

Summary:

We all know that the Arabs, in the early beginnings, were preoccupied with transcribing the Holy Qur'an, the honorable Sunnah of the Prophet, and the fragrant biography, despite their ignorance and their old-fashioned era. They knew the art of expression and writing, so they began to apply this to their late-night gatherings, tales, stories, anecdotes etc. This is after their methods and ways of writing them were linked to history. Therefore, it can be said that the Arabs have known the process of forming the so-called narration or narrativities since ancient times, and then made the latter expand and form for itself a remarkable circle that approaches a number of different methods.

المؤلف المرسل: عطى الله ناصر، **الإيميل:** ensbnaceur@gmail.com

So it was able to establish and looking forward to the so-called narrative texts in its multiple manifestations, whether the latter is a narration of events that occurred or an attempt to express a specific circumstance.

Keywords: Narrative writing, storytelling mechanisms, narrative text, Arabic narration, poetic writing

مقدّمة:

تجلّى لقد ازدهرت البحوث التي تدور حول طبيعة المنظور السردي وأشكاله إلى غاية أن أصبح فن القص من أهم الأنواع الأدبية في الساحة الإبداعية، فبدا يتطور ويتنقل في أنواع خاصة من التأليف حتى جعل لنفسه أفقا شاسعا ودربا خاصا به، ثم بعد هذا التحسن والتطور، إذ نجد من حاول أن يدخل على النصوص السردية طرقا وأساليب جديدة تحول لغته السابقة والقديمة إلى لغة حديثة وجديدة، تمثل هذا في الكتابة الشعرية، أو (اللغة الشاعرة)، هنا اتخذ السرد بعدا كبيرا جعله بين ثبات وحركية متزامنة بكتابات نثرية وأخرى شعرية حديثة ارتبطت بها وذلك من خلال أعمال الأدباء والكتاب، ومن هنا نجد أنفسنا نتساءل حول التداخل الحادث بين السرد والأساليب الكتابية الحديثة (الشعرية) باعتبارهما التقيا في أرضية أدبية خصبة تتسع للاثنين، أو بمعنى آخر ماهي الحركية التي شهدها السرد في ظل الكتابات السردية وطرق الكتابة المبنية على أساس اللغة الشاعرة الراقية.

1. ماهية السرد:

أ. مفهوم السرد ونشأته:

يطلق مصطلح السرد على الخاصية التي تخص نموذجا من الخطابات، وفق توالي الأحداث والأزمنة ويقوم السرد عامة على دعامتين أساسيتين:

أولهما: أن يحتوي على قصة ما، تضم أحداثا معينة، وثانيهما: أن يعين الطريقة التي تحكى بها تلك القصة، وهذا هو بالضبط ما يسمى سردا.

إن كون السرد هو بالضرورة قصة محكية يفترض وجود شخص يحكي، وشخص يحكى له، أي وجود تواصل بين الطرف الأول الذي هو السارد، وطرف ثان مرويا له بمعنى القارئ، وبذلك نجد أن الرواية أو القصة باعتبارها محكيا أو مرويا فإنها تمر عبر القناة التالية (الراوي، القصة، المروي له)1.

وإن السرد هو الكيفية التي تروى بها القصة عن طريق هذه القناة نفسها، وما تخضع له من مؤثرات بعضها متعلقا بالراوي والمروي له، والبعض الأخر متعلق بالقصة ذاتها، والقصة لا تحدد بمضمونها فقط، ولكن أيضا بالشكل أو الطريقة التي يقدم بها المضمون، وهذا بمعنى أن الرواية لا تكون مميزة فقط بمادتها ولكن أيضا بواسطة هذه الخاصية الأساسية المتمثلة في أن يكون لها شكل

ما، بمعنى أن يكون لها بداية ووسط ونهاية، وتميز الشكلاني الروسي (توماتشفيسكي) بين نمطين من السرد:

أ. **سرد موضوعي:** يكون فيه الكاتب مطلعا على كل شيء حتى الأفكار السردية للأبطال، وفي هذا يكون الراوي محايدا فهولا يتدخل ليفسر الأحداث وإنما يصفها وصفا محايدا كما يراها ونموذج هذا الأسلوب هو الروايات الواقعية2.

ب. **سرد ذاتي:** وفيه لا تقدم الأحداث إلا من زاوية نظر الراوي فهو يخبر بها ويعطيها تأويلا معينا، يفرضه على القارئ وهذا الأسلوب هو الروايات الرومانسية، ومن هنا يجب أن نتحدث عن البدايات الأولى للرواية .

2. جذور الرواية:

منذ القرن الثامن عشر أصبحت الرواية أكثر الأشكال الأدبية رواجا لأنها تمثل عن قرب حياة غالبية الناس، غير أن جذورها تمتد إلى الأدبين الإغريقي والروماني، ولقد كانت تتميز بملامح فنية خاصة بها كالحبكة والموضوع وتقنيات القص، فمنها ما كان يساعد على التفكير في القضايا الأخلاقية والاجتماعية والفلسفية كما كان يحث بعضها على الإصلاح، ويهتم بعضها الآخربتقديم معلومات عن موضوعات غير مألوفة، وهناك روايات كانت تهدف إلى مجرد الإمتاع والتسلية، ويمكن أن نذكر بعض كتاب الرواية آنذاك أمثال (هنري جيمس البارع ورواية سيدة "1882-1887")، رواية (آرثر وفرسان المائدة المستديرة ملك انجلترا الأسطوري).

و بحكم أني أتحدث عنالسرد العربي فلابد لي التحدث عن الانطلاقة والبداية الأولى لفن الرواية عند العرب، وكيف تطورت وتعددت أساليبها وأشكالها.

3. الرواية العربية:

أ. ظهورفن الرواية في العالم العربي:

إن أي فن أدبي من الفنون يولد وينمو ويتطور ويمر بعدة مراحل وإن الرواية العربية شانها شأن كل الفنون الأدبية بدأت بأساليب بسيطة وتطورت مع تطور المجتمع العربي إثر النهضات الفكرية التي أثرت على مجتمعاتنا العربية، ولقدتأثرت تأثرا مباشرا بالرواية الغربية بعد منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ولا يعني هذا التأثر أن التراث العربي لم يعرف شكلا روائيا خاصا به فقد كان التراث حافلا بتركة قصصية تمثلت في حكايات السمر والسير الشعبية وقصص العذريين وإضرابهم، والقصص الديني والفلسفي، أما المقامات العربية فذات مقام خاص في بدايات فن القص والرواية في الأدب العربي3.

فقد تركت بصمات واضحة في مؤلف المويلحي- حديث عيسى بن هشام وفي مؤلفات غيره، من المحدثين اللذين اتخذوا من أسلوب المقامة شكلا فنيا لهم، وهنا أشير إلى نقطة وهي أن العصر

العباسي يعتبر العصر الذي نمت فيه بذور الرواية العربية، ومن أمثلة ذلك: كتاب البخلاء للجاحظ، كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع والحيرة والاعتذار للشيخ أبي الحسن عبد العزيز الكيناني، فحين ظهر هذا الفن لم يكن يعرف باسم الرواية بحكم أن الكاتب في هذا العصر يكتب هذه القصص حقيقية كما حدثت له أو سمعها من أحد حدث له فنقلها هو في كتاب فمثلا كتاب البخلاء للجاحظ، سنرى أنه أخرج القصة عن طريق أناس عاصرهم وشهد بخلهم، حيث أنه كذلك قد ذكر مواقف البخلاء متفرقة ولم يذكرها بتسلسل.

ب. تطورفن الروا ية:

لقد تطور فن الرواية في القرن العشرين بعد الاتصال الحدث بين الثقافتين العربية والغربية، حيث نجد أن للرواية قسمان:

القسم الأول:الرواية الخيالية وهي قصة اخترقها الروائي من مخيلته يهدف فيها إلى فكرة يريد أن تصل إلى القارئ ومن أمثالها: رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ، ورواية موسم الهجرة للطيب صالح.

القسم الثاني: غير خيالية وهي رواية تاريخية أو معاصرة كانت أحداثها موجودة أي أنها حدثت بالفعل وليس بمخيلة الروائي ومن أمثلتها الرواية أرض السواد لعبد الرحمان منيف، وتظل الرواية العربية قبل الحرب العالمية الأولى على حالة من الشوائب والبعد عن القواعد الفنية، حتى ظهرت رواية زينب لمحمد حسين هيكل 1914م.

يتفق النقاد على أنها بداية الرواية العربية الفنية، وعقب الحرب العالمية الأولى ومع بداية الثلاثينيات من القرن العشرين بدأت الرواية العربية تتخذ سمتا أكثر فنية وأعمق أصالة، وكان ذلك على يد مجموعة من الكتاب أمثال طه حسين، توفيق الحكيم، المازني، محمود تيمور، ......إلخ.

فقد نقلت الرواية في الأربعينيات والخمسينيات الإبداع الروائي في الأدب العربي نقلة جديدة، ومن أبرز الكتاب هنا نجد: نجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، يوسف السباعي، وفي الستينيات من القرن العشرين زاد الإبداع في مجال الرواية في الأدب فظهرت أنماط روائية جديدة، فيها ثورة على الأساليب التقليدية كالحبكة والبطل والسردالتاريخي، ثم ظهر جيلا روائيا سمي بالحداثيين، خرجوا عن رؤية الرواية التقليدية وتقنياتها، ومن بين هؤلاء الكتاب: صنع الله إبراهيم، حنا مينا، جمال الغيطاني، ادوارد الخراط، الطيب صالح، وبهاء طاهر، واميل حبيبي، وعبد الرحمان منيف، والطاهر وطار، ....إلخ.

ووصلت الرواية بذلك إلى دنيا النص المفتوح الذي يفضي إلى قراءات منفردة لا تصل إلى تفسير نهائي للخطاب الروائي كما كان الحال في الروايات السابقة.

4. حركية السرد:

حركية السرد هي التي تطلق عليها مصطلحات عديدة مثل السرعة والديمومة والمدة والإيقاع، وتعني تلك العلاقة الناتجة من عرض زمن الأحداث الذي يقاس بالسنين والشهور والأيام .....على زمن النص الذي يقاس بالصفحات والأسطر والكلمات.....4.

ولقد رصد النقاد أربعة درجات رئيسية تتجلى فيها سرعة السرد، ولكن تم دمجها في ثلاث درجات واستبدال السرعة – أو مايدل عليها من مصطلحات – بالحركة، نظرا لأن المقصود بالفعل هو حركة السرد بين التوقف التام أو الحركة المتدرجة.

والحركة السردية تكشف إتباع القص، باطراد لفلسفة الاقتصاد في الجهد، فكلما زاد التقدم الفني في مجال القص، قل الجهد المبذول، ولهذا نجد للحركة ثلاث درجات:

1- السكون: حيث زمان الحدث أصغر من النص.
2- الحركة المتوازية: حيث زمن الحدث مواز، أو مساو – لزمن النص.
3- الحركة المتجاوزة: حيث زمن الحدث أكبر من زمن النص.
4- سنرى الآن إبداع السارد الأدبي في مجال سرد القصة والفصح عن عالمها، وعناصرها الثلاثة المنسجمة وفق أداء الكاتب.

أ. السرد الروائي :

إن فكرة السرد التي يمكن أن تكون خفية أو عصية على التبين والمتابعة في فنون القول الأخرى هي التي خلقت الرواية والقصة، فاللغة التي يمكن عدها تجسيدا حيا للوعي أو الوعي متجسدا، لا تجد ما يمنحها الحياة والسيرورة بوصف سيرورتها للوعي مثلما نجد ذلك في السرد الروائي الذي استطاع كسر رتابة التكرار، والخروج من عقمه على مستوى الأداء اللغوي والايقاعي وتكرار المعنى في أحيان أخرى، فجاء السرد لجعل الوعي يخرج من طبيعته التجريدية القائمة عبر اللغة المجردة ويلزم سيرورة ما، ونشد مآلا معينا بدلا من الانعزال والدوران حول فلك واحد، قد تؤدي به عطالته الذاتية إلى الهمود والكف عن الحركة.5

إن السرد الروائي يمضي بالمتلقي عبر مسار ثري محتشد بالتنوع من غير أن يتخلى بالضرورة عن هز الوجدان ورجه حتى لو عاد المسار بالمتلقي إلى نقطة البدء عبر ما يسمى بالسرد الدائري فالسرد خلال ذلك قد يجعله يفوز بالطواف في غابة زاخرة بالمناخات والطبائع الفردية والتراكيب الاجتماعية والصعود والهبوط والتوتر والاستواء وبكل ما يجعل الحياة البشرية على ماهي عليه من ثراء مدهش في مختلف الميادين وعلى مختلف المستويات.6

والسرد الروائي بوصفه متشكلا من مادة لغوية يحتفظ بجميع المزايا التي يؤديها التكرار في خدمة البناء اللغوي للنص، وإنتاج الدلالة المختلفة باختلاف الأصوات داخل اللفظة، وهذا هو الذي

يمنح اللغة قدرتها على أن تكون مكافئا للوجود والسرد هو الأقدر على تمثل وظائف التكرار ومزاياه التي تجعل اللغة لغة لخلق التغيير وترسيخ الرتابة لملء الفراغ ومنح الإبداع 7.

ب. الدراسات السردية العربية الحديثة:

إن ظهور الدراسات السردية العربية المتخصصة، خلال الربع الأخير من القرن العشرين، انشغل بها الكثير من النقاد العرب بين رافض لها أو آخذ، وهذه الحقيقة التاريخية ينبغي ألا تطمس أمرين أساسيين في هذا الموضوع: أولهما أن عناية النقد بالآداب السردية قديمة في الثقافة العربية، وثانيهما أن الاضطراب لم يزل يعصف بالدراسات السردية التي لم تستقر فرضيتها الأساسية، ولا مفاهيمها، ولا طبيعة العلاقة بينها وبين الأدب الذي تحلله8.

وعندما نبحث في واقع الدراسات السردية العربية فليس من الحكمة تخطي المرجعية الحديثة، فالتطورات التي عرفتها نظرية الأدب في القرن العشرين جهزت (السردية) بكثير من الركائز الأساسية التي أصبحت من أركانها الأساسية، ومعلوم أن مصطلح السردية Narratologie، مرتبط بمصطلح أقدم وأشمل هو الشعرية Poetics، ومن هنا نستطيع أن نصوغ شيئا آخر وهو أن العلاقة بين السردية والشعرية هي علاقة صحيحة في التصور العام لنظرية الأدب، إذ ما لبث أن انفصلت الأنواع الأدبية المميزة، فانبثقت حاجة منهجية ومعرفية لتوسيع مفهوم نظرية الأدب لتتمكن من شمول الأنواع الجديدة.

وباستقرار الأشكال الأساسية للسرد في العصر الحديث، أصبح من اللازم أن يستحدث مفهوم معبر عنها، وإطار نظري لتحليلها وتصنيفها، وتأويلها فظهرت السردية التي أصبح موضوعها استنباط القواعد الداخلية للأشكال السردية، ثم وصف مكوناتها الأساسية من تراكيب وأساليب ودلالات.

ولم تبق السردية مقترحا نظريا جامدا إنما ربطت بنظرية (التلقي) وهي نظرية تعنى بتداول النصوص الأدبية وكيفية تلقيها (السارد/النص المقدم/القارئ)، ولهذا سرعان ما أصبحت نظرية التواصل إحدى الخلفيات المنهجية التي أثرت في السردية، هنا بالتحديد يجب أن نحدد أو نتكلم ولو بضعة أسطر عن المصطلح السردي المستنبط من السردية التي تحدثنا عنها هنا، ونصبوا إلى الالتفات إلى تطوره وبروزه ضمن الساحة الأدبية ووفق النقد العربي الحديث.

ج. آفاق المصطلح السردي:

تطور المصطلح السردي كثيرا بفضل التعريب المتناغم مع حال النقد الأدبي العربي الحديث، وبدا ذلك في جهود عديدة، ونرى منها جهود حميد الحمداني (المغرب) في كتابه "بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي"، الذي قارب فيه المصطلح السردي من اللغة العربية وموروثها، نظريا وتطبيقيا لدى تحديد الحوافز والوظائف والعوامل ومنطق الحكي ومكونات الخطاب السردي إلى الشخصية

الحكائية، والفضاء الحكائي والزمن الحكائي والوصف في الحكي، وهي مصطلحات رئيسية متنامية في السرد العربي، وأردف جهده بمحاولة وضع مصطلحات السرد باللغة العربية والفرنسية9.

لقد انبثق هذا المصطلح ضمن السردية العربية الحديثة بوصفها ظاهرة أدبية ثقافية من خضم التفاعلات المحتدمة بين المرجعيات والنصوص والأنواع الأدبية، فهي الثمرة التي انتهت اليها حركة التمازج التي قامت بين الرصيد السردي التقليدي، ومؤثرات ثقافية جديدة والحراك الذي عصف بالأنواع العربية التقليدية، وفي مقدمة ذلك ضعف الحدود الفاصلة بين الأجناس والأنواع وتداخل النصوص وغياب الهويات النصية الثابتة وتفكك الأنظمة السردية التقليدية وانحسار دور القيم الثقافية المطلقة 10.

ولقد كانت الرواية إحدى الصيغ الأسلوبية الكبرى التي تشكلت على الحدود الرمزية الفاصلة بين عالمين عالم في طريقه للأفول والتحلل، وعالم في طريقه للظهور والتكون وسرعان ما دشنت شرعيتها الفنية، حينما أبرزت قدرة هائلة للتفاعل مع هذا المصطلح والعالم الجديد بمكوناته وعلاقاته وقيمه، فاقترنت به من جهة كونها إحدى تمخضاته، ومن جهة كونها علامة معبرة عنه11.

5. شعرية الكتابة وسرد القص:

تشهد الساحة الأدبية تسربا إلى الكتابة السردية بألوانها المتعددة حتى أن هناك من الشعراء انحصروا ليضافوا إلى قائمة كتابة القص، وتبدوا هذه الانتفاضة أو هذا التداخل كظاهرة آخذة في النمو بأسباب يتشابك فيها الجهل والمعرفة نجد أن البعض يعزي ذلك إلى سهولة القص كفن، فيما يعتقد آخرون أن الظاهرة ليست سوى موضة عابرة سرعان ماتزول، وهناك رأي ثالث يقول بأن القصة والشعر يعيشان بتبادلية في النص الواحد باعتبار أن الشعر والنثر قسيما الأدب12.

إن التأمل في لغة الرواية على ضوء تصنيف جاكوبسون لوظائف اللغة يشير إلى استعصاء لغة الرواية على الانضواء الدقيق تحت هذه الوظيفة، أو تلك من غير أن يغيب عن الذهن حالة التداخل الموضوعي بين مختلف الوظائف اللغوية في سياق مختلف أنساق اللغة والكلام، ويشير ذلك التأمل أيضا إلى بروز وظيفتين في لغة الرواية وهما الوظيفتان الشعرية والاستعمالية البراغماتية التي وضعها جاكوبسون تحت عنوان إقامة الاتصال التي فتحت الوظيفة الشعرية، والتي تندرج عن كل ما ينحو منحى فنيا داخل الرواية بواسطة اللغة الواحدة 13.

لقد سبقت الإشارة إلى استئثار الشعر بالمحاولات المبذولة في إطار الدرس الألسني، ولكن الرواية بوصفها فنا لغويا من الضروري أن تتمتع بما اعتاد الشعر أن يتمتع به من دراسات ومقاربات منهجية، وطالما تهتم الشعرية بقضايا البنية اللسانية تماما مثلما يهتم الرسم بالبنيات الرسمية، لهذا يمكن اعتبار الشعرية جزءا من اللسانيات سواء عدت الرواية حالة جزئية تنضوي في خانة الشعرية، أو تم النظر إليها مثلما نظر إليها باختين بوصفها شعرية بكليتها14، ومعروف أن جميع الاجناس

الكتابية تمنح من المادة اللغوية ذاتها، وربما تستعمل الكلمات ذاتها، ويتركز الاختلاف فقط في الطريقة التي خضع لها ترتيب الكلمات، فعندما ترتب الكلمات بطريقة مختلفة فإنها تعطي معنى مختلفا وعندما ترتب المعاني بطريقة مختلفة تعطي انطباعات متعددة15.

ولقد خاضت القاصة فاطمة بوزيان وأمثال زينب الشروقي وغيرهم في هذا المجال، حيث أننا نجد فاطمة بوزيان في كتاباتها تكشف للقارئ جرأة عالية في تناول المواضيع من دون التباس ولا مداورة16، كما أنها لا تتقاطع مع كتابات الجيل السابق بل تحاول التعامل مع النصوص الجديدة، ففي نظرها هي أن الشعر يستفيد من المتن السردي مثلما يستفيد السرد من المتن الشعري.

نصوص هاته القاصة اتسمت بنكران الوجه الظاهري، والتنصل من الايدلوجيا فكتاباتها تتميز بالخصوصية، والاعتماد على تقنيات كتابة خاصة بها في إخراج النصوص من أهمها17:

1. آراء العنوان بمعنى شعر العنوان بدلالة عميقة لأن القاصة تدرك أن العنوان يسهم في برمجة القراءة والتأويل عند القارئ.
2. الترقيم: لأن النص عندها هو عبارة عن مجموعة من الفقرات تنظمها علامات ترقيم تفيد التساؤل والدهشة والفجأة.
3. الزمان والمكان: من خلال نصوصها (عائد، نص طحين ليلة شبه بيضاء)، إننا نستطيع القبض على المسافة الفاصلة بين زمن الحكي وزمن المحكي.
4. أحادية الشخصية: تعتمد الكاتبة في قصصها على توظيف شخصية واحدة فاعلة ومفعول بها هو الذات لا غير، وتلك سمة من سمات السرد الحديث في إنتاج القصص الفني، وبما أنني ذكرت شعرية الكتابة فيجب علي أن التفت إلى الحديث عن الشعرية التي هي اللغة الراقية في الإبداع السردي على غرار ما يطرأ على الأسلوب المعتمد وعلاقتها بالقصص الفني.

أ. الكتابة والقصص الفني:

لقد سبق الشعر في إقرار قواعده الفنية، كما سبق في إقرار التقاليد المصاحبة له، مما جعل أثره في حياة الجماعات البشرية واضحا خاصة عند العرب الذين اتخذوا الشعر ديوانا لهم18، ولا يعني هذا أن النثر لم يكن فاعلا، بل يشير إلى أنه تأخر في ترسيخ قواعده، نظرا لارتباطه بتقاليد تقتضي طورا حضاريا متقدما، بعبارة أخرى ارتبط ظهور النثر الفني بظهور الكتابة، واستقرارها كمقوم حضاري، فارتبط بتقاليدها بينما عاش الشعر لمدة طويلة مرتبط بالتقاليد الشفهية19.

إذا كان الارتباط بالكتابة يصدق على النثر عامة، فإنه أكثر التصاقا بالقصص والسرد، دون أن يجر ذلك غلى استنتاج أن القصص كفعل غريزي لم يكن قائما قبل ظهور الكتابة، إن القصص عادة بشرية عتيقة غير أنها كانت تمارس لتحقيق أغراض عملية، ولذا حكمتها غايتها، فلم تخلق قواعد

أو أصول يعتد بها، أما السرد القصصي فقد راعى الالتزام بحد أدنى من القواعد الفنية يتواصى به المبدعون .دون أن يبرموا عقدة بهذه القواعد، لأن هذه القواعد وضعت نفسها بنفسها على طريق الممارسة الفعلية والفرق بين القصص العام والقصص الفني الكبير، فالأول عفوي ومتغير والثاني ينطوي على القصدية والثبات، ولا يمكن تحقيق صفة الثبات إلا بالكتابة ولهذا يمكن وسم القصص العام بالشفهية وسم القصص الفني بالكتابة، فالأول قد يكون هادفا بينما الثاني ينتج بغرض التأثير، وفي سبيل هذا التأثير يعتني القصص بالشكل والمضمون معا، بينما القصص العام ينصب اهتمامه بالمضمون أكثر.

ب. اللغة الشعرية في السرد:

يمثل السرد العربي في القرن التاسع عشر مرحلة التحول وليس القطيعة والتحول عن النسق التقليدي وبداية تأسيس نسق جديد، لقد جرى تحول بطيء وغير منظور أحيانا في وظيفة السرد وفي أساليبه وفي تركيب عناصره ومكوناته.20

لقد اقتحم السرد حياتنا الثقافية المعاصرة إلى ما يقارب حد الدمغ، والآثار الثقافية التي تبدو أنها لا تزال تنأى بنفسها عن الاستضلال بالسرد، أو بأحد غصيناته، ولقد تجاوز هذا الأخير فنون القول إلى فنون أخرى التي استمدت موضوعاتها من القصص الدينية والشعبية والأسطورية يستبطن كل منها سرد قصة ما.21

تتميز القصة القصيرة بإغرائها المتمثل في بنيتها المرنة فبينما هي شكل فني معقد يتطلب حذفا شديدا وتقنيات ذكية في الاختيار والهيكلة والتكثيف، يمكن أن تنزلق بيسر فتصبح مجرد مشهد بسيط من ذاكرة الراوي، ويعرض طرفا من خواطره وأفكاره عن الحياة بمناسبة حادثة قد يكتفي بوضع نقطة أخيرة تغلق مسارها، مما يقدم الاسترسال والتبسيط والكتابة الصحفية البعيدة عن صنعة القص وخلق الأشكال الفنية22.

ونحسب أن (يحي حقي) ومثله في ذلك يوسف ادرسي قد وقعا في هذا الإغراء، وتنازلا كثيرا عن مقتضيات الإحكام التقني في الكتابة، فأشد مايغري يحي حقي في مقاله التحليلي الطويل عن سيرته الذاتية هو ضمير المتكلم الذي كتبت به، وتوزعها على مرحلتين في حياته، تقوم فواصل زمنية مرتبطة بتاريخ الكتابة من ناحية وتوقيت الذكريات المسرودة من ناحية أخرى بتحديد إيقاعها، رغم أننا نعرف أن هناك مسلمة تقول بأن السردية تتحكم في كل خطاب مهما كان نوعه23، وهناك وهم آخر أبلغ ضررا، وهو الأدبية فليس ما يكتبه الفنان يحقق بالضرورة درجة عالية من المستوى الفني الذي يخضع لأصول الشعرية فإذا كان قصاصا مثل يحي حقي، فإن هذه الشعرية تصبح منوطة بدرجة ما يجتهد في تكوينه وتوظيفه جماليا من تقنيات متجددة ودالة.

أما الاسترسال السهل دون ابتداع مدخل جديد للراوي سوى ضمير المتكلم، أو تقطيع خاص للزمن سوى وهم التاريخ، أو التماس لإيقاع شعري رفيع فإنه لا يمثل إنجازا فعليا يستحق التدارك وإعادة النشر، وأقصى ما يقدمه أن يكون مادة توثيقية تسعف في التاريخ الأدبي لبعض الفترات والمواقف.

إن الشعرية والسرد شيآن يدفعانا إلى ضرورة التحامهما في شكل فني متماسك مكتوب بلغة شعرية (شاعرة) راقية، وهذا من أجل تأليف وتكوين بنية أدبية نصية يتم تخطيطها وتنظيمها وربط أطرافها واستقصاء لحظاتها ومنعطفاتها بحس شعري راقي جديد ضمن قوالب جمالية سردية24.

فالعناية بالأساليب المألوفة في الخطاب السردي وتصميماتها الكلية وهندستها الداخلية، سيحولها إلى سبيكة مصقولة مكتوبة بلغة شاعرة بحتة تقدم إلى القراء في قالب أدبي مفهوم واضح، وإذا أردنا الانعطاف ولو لوقت قصير حول الحديث عن أسلوب الكاتب، فهذا لا يتم سوى باختيار العينة الشعرية ونوعيتها فمثلا نجد نجيب محفوظ يقيد التخييل وتحرير اللغة التي هي المنبع الفعلي لمزاجه الشعري، فالأصوات التي تتعدد في كتابة نجيب واللغات التي تتمثل في أسلوبه تتجاور ولا تتمازج فتشف عن طبيعة مهجنة تقف فيها الكلمة العامية إلى جانب الفصحى دون توليد لجيل جديد من الكلمات التي تلغي هذه الثنائية، وفي صدد الحديث حول هذين العنصرين الشعرية والسرد نجد أن الدكتور صلاح فضل قد قال في موضوع الكتابات السردية الحديثة التي امتزجت بين الصيغة التقليدية للقص والصيغة الحديثة، والتي ارتبطت بإلزامية إدخال جوانب لغوية راقية، بمعنى اللغة الشاعرة العالية، حيث وجد نفسه بين تكاثر هذه المطبوعات حتى غدت كما قال، (كأنها جيشا يطاردنا، أو بحرا عظيما يزحف ليغرقنا بحر من الورق، هذا هو طوفان العصر الحديث دمدمة هذا البحر من دقدقة الملايين، وهمهمة ألوف مؤلفة من مطابع ضخمة تتكاثر كالفطر أمام العين)25.

إننا حيال صورة لعالم من الكتابات المختلفة والمتعددة، لكنها صورة شعرية فحسب يزيدها جمالا عن طريق العقل الالكتروني واختراع لغة جديدة رمزية راقية تحل فيها الكلمة محل سفر كامل، لكن تظل هذه الجهود والأعمال سمات أساسية لهذا الأسلوب.

ت. الخطاب السردي واللغة الشعرية:

لو أخذنا نموذجا بسيطا ومختصرا جدا نجد على سبيل المثال رواية عابر سرير لأحلام مستغانمي، ما إن يطأ القارئ العتبة الأولى للرواية حتى يفاجئك الخطاب السردي وقد استعار الشعر بدلا من النثر، وربما هو في هذه الوجهة مقصودة من قبل كاتبة تعرف بعروبتها كأول كاتبة جزائرية اتصفت ببلاغة شعرية مستهلكة ولا تخرج من فضاء لغة الذكورة المهيمنة على الذاكرة الإنشائية العربية، حتى انك لتتساءل مرارا عن سبب رغبة الكاتبة في إسناد مهمة السرد لسارد مذكر، وعن

سبب تواريها هي كأن تخلف دلالاته ومجازاته في مختلف الأوجه، فالاستهلال الشعري الذي تطاول إلى أكثر من عشرين صفحة كان يمكن سرده نثريا أو قصصيا ببساطة على نحو آخر26.

وإذا كانت الكاتبة هجرت عالم الشعر بعد إخفاق تجربتها أو نجاحها، فليس من الضروري أن تجلبه معها إلى عالم الرواية القائم على لغة الأخبار، وتعدد الأصوات فعالم الحكاية عالم جذاب من حيث الأساس والشعرية كامنة في تفاصيل و تعدد أصواته وروائحه وألوانه، ثم إن الهيمنة الشعرية في الرواية (عابر سرير)، أو اللغة الأحادية مازالت ترى في أزمنة البلاغة والفصاحة معيار الأدب الجيد، حيث إننا خلال عملنا النقدي لاحظنا اهتماما مبالغا به من قبل روائيين شباب تأثروا بفتوحات أحلام الروائية، فآثروا انتهاج سبيلها أو في ما اصطلحوا عليه بـ(لغة الجسد)، وهناك نقاد نظروا لهذا الجانب الملتبس من أن ثمة مسافة كبيرة كائنة مابين الخطاب الروائي والخطاب الشعري من حيث بنائيته وأسلوبيته والخطاب الشعري البلاغي هو في الغالب صوت أحادي ليس بإمكانه عرض الحقيقة إلا من خلال زاوية رؤية محددة تفترض تعسفيا على القارئ الذي عليه أن يقبل بما منحته من إمكانية للدهشة بهذا الكم من التشبيهات والاستعارات والمجازات والكنايات في نسق واحد، ولقد لاحظ النقاد الإخفاقات والأخطاء التي وردت في رواية (عابر سرير) والتي تمثلت في لا موضوعية للشخصية الساردة المهيمنة على الخطاب والمهمشة لشخصيات الرواية الأساسية والأخطر من ذلك السعي الدائم لإقصاء صوت الأنوثة على مدار القص27.

خاتمة:

من خلال كل ماتم عرضه كان لنا أن أدركنا مفهوم السرد وتطوراته على مستوى العالم العربي وتأثره بالعالم الغربي بكل تجلياته ومن هنا نؤكد مدى إسهامات الأدباء الغربيين في هذا المجال أما على الساحة النقدية العربية فلقد اهتم العديد من الباحثين العرب الدراسات السردية وواقعها وآفاقها حيث نجدهم أنهم قد اهتموابحركية السرد الجامعة بين الكتابات النثرية المتعارف عليها بكل أساليبها وأشكالها، وكذا علاقتها بالكتابة الشعرية ومن خلال ماسبق تناوله حول دائرة الخطاب السردي واللغة الشعرية نقول رغم كل الانتقادات الموجهة ضمن حقل الدراسات النقدية، إذا كان إسهام اللغة الشاعرة الراقية ضمن المجال السردي من أجل تحسين وترقية النصوص الأدبية فذلك جلي بالدراسة والحث على تكثيف الظاهرة الإبداعية لدى الإنسان الأديب28.

إن هذا الموضوع يطمح إلى تحليل شامل لظاهرة أدبية ثقافية كبيرة ألا وهو حركية السرد العربي الحديث الذي ينبغي لنا من تفكيك وتحليل للمقولات الشائعة، وقطع الصلة بفرضياتها ونتائجها، وإعادة تركيب السياق الثقافي في ضوء المعطيات القائمة للوصول إلى الاستنتاجات التي تدفع بها تلك المعطيات نفسها ولكل هذا، لقد كان القرن التاسع عشر ميدانا خصبا للكشف والتحليل فيما

يخص تتبع الظاهرة الأدبية السردية، وهكذا يتم تكوين وبناء النوع السردي الجديد المبني وفق تعاليم الشعرية وكيفيات القص الممنهج الذي أفرزه الحراك الثقافي .

ختاما من خلال ما تم تناوله يمكننا القول أن سبيل العمل والبحث في سردنا العربي الحديث يتطلب منا جهدا نظريا وعمليا عميقين إذا أردنا الاحاطة بمختلف روافده والانتباه إلى زواياه وجوانبه المتعددة والغنية، و التقدم في التعامل معه من منظور يؤسس لفهم جديد ورؤية استشرافية دقيقة مستقبلا في ظل التحولات الجديدة التي يعيشها عصرنا.

مراجع البحث وإحالاته:

1- لحمداني حميد: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991، ص45.

2- محفوظ نجيب: صباح الورد، دار الشروق، ط1، القاهرة، 2006، ص06.

3- عزت عمر: (مقال حول فن الرواية)، مجلة البينة، العراق، ع10، 1998، ص111.

4- ناصر عبد الرزاق الموافي: القصة العربية – عصر الإبداع، ط1، القاهرة، 1997، ص157.

5- صلاح صالح: سرد الآخر – الأنا والآخر عبر اللغة السردية – المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص: 08.

6- المرجع نفسه، ص: 09.

7- المرجع نفسه، ص: 09.

8- ناصر عبد الرزاق الموافي: القصة العربية – عصر الإبداع، ط1، القاهرة، 1997، ص201.

9- المرجع نفسه، ص211.

10-عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة – تفكيك الخطاب وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2003، ص:7.

11-المرجع نفسه، ص : 08.

12-لحمداني حميد: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص150-151.

13-صلاح صالح: سرد الآخر – الأنا والآخر عبر اللغة السردية، ص: 49.

14-ينظر: ميخائيل باختين–ت- يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1988، ص:11.

15-باسكال – نقلا عن "في البنيوية والتركيبية" لـ د جمال شحيد، دار ابن رشد، بيروت، ط1، 1982، ص:160.

16-ناصر عبد الرزاق الموافي: القصة العربية – عصر الإبداع، ص20.

17-عبد الرحيم الخصار: تقنيات الكتابة السردية، ط1، المغرب، 2010، ص38.

18-ينظر: باريس محمد المزديوي: هذه ليلتي لفاطمة بوزيان مزيج من جرأة وتجريبية، جريدة العرب الدولية، 18أكتوبر 2006، ع10186، ص85.

19-عبد الرحيم الخصار: تقنيات الكتابة السردية، ص39-40.

20-عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة، ص:79.

21-صلاح صالح: سرد الآخر – الأنا والآخر عبر اللغة السردية، ص:07.

22-ناصر عبد الرزاق الموافي: القصة العربية، عصر الإبداع، ص20.

23-المرجعنفسه، ص60.

24-صلاح فضل: أساليب السرد في الرواية العربية، دار سعاد الصباح، ط1، 1992، ص158.

25-محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، الدار البيضاء، المغرب، 1985، ص130.

26-صلاح فضل: أساليب السرد في الرواية العربية، ص160.

27-المرجعنفسه، ص162.

28-عبد القادر عبو: شعرية الحداثة - مقاربة سيميائية، مجلة الموقف الأدبي، المجلد 33، ع392، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2003، ص156.

قائمة المصادروالمراجع:

1.باريس محمد المزديوي: هذه ليلتي لفاطمة بوزيان مزيج من جرأة وتجريبية، جريدة العرب الدولية، ع10186، 18أكتوبر 2006.

2.باسكال – نقلا عن "في البنيوية والتركيبية" لـ د جمال شحيد، دار ابن رشد، بيروت، ط1، 1982.

3.صلاح صالح: سرد الآخر – الأنا والآخر عبر اللغة السردية – المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

4.صلاح فضل: أساليب السرد في الرواية العربية، دار سعاد الصباح، ط1، 1992.

5.عبد الرحيم الخصار: تقنيات الكتابة السردية، ط1، المغرب، 2010.

6.عبد القادر عبو: شعرية الحداثة - مقاربة سيميائية، مجلة الموقف الأدبي، المجلد 33، ع392، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2003.

7.عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة – تفكيك الخطاب وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2003.

8.عزت عمر: (مقال حول فن الرواية)، مجلة البينة، العراق، ع10، 1998.

9.لحمداني حميد: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991.

10. محفوظ نجيب: صباح الورد، دار الشروق، ط1، القاهرة، 2006.

11. محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، الدار البيضاء، المغرب، 1985.

12. ميخائيل باختين–ت- يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1988.

13. ناصر عبد الرزاق الموافي: القصة العربية – عصر الإبداع، ط1، القاهرة، 1997.